اهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

دار ابن الأثير

٣٢

الحج

مقاصده وفوائده روائعه ومنافعه

الدكتور زيد بن محمد الرماني

عضو هيئة التدريس بجامعة
الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ت : ٤٢٨٥٣٩٠ / ٢٦٧٢٥٥٨ ص . ب ٦٤٣٧٧ الرياض ١١٣٥٦

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الإنسان في حياته مغمور في بحور الماديات، مشغول بها، صارف كل وقته وجهده في التحصيل عليها والمباهاة بها، والماديات تبعد الروح عن التلذُّذ بأهم ما خُلِقَت له وهو التفكُّر في الحياة الأخرى، والوصول إلى الحقيقة التي هي الانقطاع إلى الله والإخلاص له في العبادة والتقرُّب إليه بأنواع الطاعات.

فحياتنا المادية بجميع ما فيها من المظاهر تبعدنا عن هذه الحقيقة، حيث تحول بيننا وبين الوصول إليها مع أنها أهم شيء يجب أن نسعى إليه ونحرص على حصوله.

فكان من عناية الله بعباده أن فَرَضَ عليهم أموراً تَحُول بين النفس وبين الاندفاع في تيار الشهوات المادية.

إذ فرض سبحانه الصلاة على عباده وجعل الإنسان في صلاته يناجي ربّه، وجعله في سجوده أقرب ما يكون من ربّه، فكانت الصلاة بصورتها وبمعناها من أنفع ما يعالج به الإنسان نفسه.

يقول الأستاذ محمد المختار بن حمود: لمَّا كانت الحياة المادية متغلبة على النفس، وكانت شيئاً محسوساً وللمحسوسات تغلُّب وتطاول على المعنويات، فقد فرض الله تعالى على عباده شيئاً آخر لمقاومتها، وذلك هو الحج إلى بيت الله الحرام.

فإذا كان الإنسان في حياته قد تعوّد بالترف والبذخ في العيش والتفنن في أنواع الملاذ، والتنويع في الملبس والمأكل والتطيب، والاشتغال بالأمور التي فيها قضاء لشهواته وتنفيذ لأغراضه وتعود بالراحة وتباعد عن كل ما فيه تعب لنفسه، فقد جاء الحج بمقاومة ذلك كله.

ففيه السفر، وركوب البحار واقتحام الأخطار، وبذلك تتعود النفس على تحمُّل الأتعاب وعدم الإخلاد إلى الراحة.

وفيه ترك المخيط من الثياب والاقتصار على ثوبين للتستر بقدر الحاجة والرضا بما تيسر من الطعام والشراب، وبذلك تتعود النفس على مفارقة الحضارة التي تميت في النفس حاسية الإقدام والشجاعة وتألف خشونة العيش وقوة العزيمة.

وفيه التباعد عن فتن الحياة ولهوها ومجونها والانصراف

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إلى الله في كل مكان ليس فيه ما يشغل عن الله، ولا ما يلهي عن ذكره، وبذلك تتعود النفس الطاعة والإخلاص في العمل وصرف الأوقات فيما ينفع.

وفيه ظهور الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين مراتبهم بمظهر واحد، وعلى نمط واحد، وفي صعيد واحد، وبذلك يُمحى الغرور من النفس وتشفى من داء التعاظم والكبر والرياء.

فكان الحج بما اشتمل عليه من هذه الأعمال والتكاليف أنجع دواء يعالج النفوس المريضة، ويصلح من شأنها ويقاوم ذلك التيار المادي الذي كانت لا تشتغل إلا به ويقربها من تلك الحقيقة العظمى.

ومن أجل ما في الحج من هذه المعاني السامية اعتنى الشارع بأمره ونوّه بشأنه، ورتّب على فعله جزاءً عظيماً، وجعله في صف واحد مع الجهاد في سبيل الله، ففي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «شدوا الرحال في الحج فإنه أحد الجهادين».

هذه بعض فوائد الحج الدينية. فأما فوائده الدنيوية ومقاصده الاجتماعية، فالحج أعظم وسيلة لتعارف الشعوب الإسلامية واتصالها ببعضها، فالمسلمون على تباعد أقطارهم وتنائي ديارهم وتشتتهم في جميع أنحاء الأرض هيأ الله تعالى لهم مؤتمراً دينياً عاماً يجتمعون فيه، فيقع بينهم أولاً التعارف الذي دعا إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ١٣]. ثم ثانياً يحصل الإعانة والتكافل بين أفراد الشعوب.

هذا هو الذي ينبغي أن يكون عليه المسلمون في الحج، وهذه هي الفرصة التي هيأها الله لهم، فهل انتفع المسلمون بذلك؟ وهل فهموا هذا المغزى العظيم؟ وهل نظّموا هذا المؤتمر الإلهي كما ينبغي أن ينظّم حتى يقع استغلاله والانتفاع به؟!

يقول الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي: إن المكاسب الاجتماعية الجماعية التي تتحقق بالحج متعددة متنوعة.

منها سياسي، ومنها اقتصادي، فبالمجتمع المنظم وبتمثل وإدراك غايات الحج يلتقي المسلمون على منهج واحد، وخطة عمل موحدة ويقيمون دولة واحدة.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وبالتعارف والتآلف تتعرف الشعوب حاجات بعضها وموارد وإنتاج بلدانها، بالإضافة إلى ما تقوم به السفارات والقنصليات الحديثة والوفود الاقتصادية من دور وخدمة رسمية في هذا الشأن وبالاجتماع في صعيد الحج يستنصر الضعيف بالقوي، وبهذا يتوصل المسلمون إلى الظفر بمقاصد الحج الحقيقية.

وبما أن تنظيم الجماعة سياسياً واقتصادياً ودفاعياً وبناء الوحدة الإسلامية لابد له من جو يسوده الاستقرار والطمأنينة كان مكان الحج وزمانه الحرمة والجلال، وكان موسم الحج عيداً أكبر للمسلمين، ففي جعل الحرم آمناً وقصر دخوله على المسلمين وفي إيقاع الحج في الأشهر الحرم إعلان لمبدأ الحرية والسلام وإكبار لشأنهما.

ولقد بيّن المفسرون المراد بالمنافع، الدينية والدنيوية، الواردة في قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨]، حيث اعتبر العلماء هذه الآية مرخصة للاتجار في الحج، وعليه فيكون لمؤتمر الحج نتيجة دينية دنيوية، ثم بعد انتهاء المؤتمر يجتمع كل وفد بأهل بلاده ويعلمهم بخلاصة ما دار فيه من الأبحاث.

وبذلك تزداد الشعوب الإسلامية اتصالاً وتقوى أواصر المودة والتعارف والتعاون والتكافل والمساعدة والتفاهم والتنسيق.

وما أعظم دين الإسلام وما أروعه وما أكثر عنايته بتربية الناس على الأخلاق القويمة، فترة بعد فترة، وموسماً بعد موسم، يذكرهم بها إن نسوا ويوقظهم إذا غفوا، ويحفزهم إذا تكاسلوا.

منذ شهرين، شوال وذي القعدة، فرغ المسلمون من تدريب عمليّ على الصبر وضبط النفس والإحساس باحتياج الفقير، ومعاونته على قسوة الحياة بشطر من أموالهم.

كان ذلك في رمضان خلال ثلاثين يوماً ختمناها بعيد الفطر، وفيه تبادلنا الزيارة وصلة الأرحام ونسيان العداوات القديمة وبرّ ذوي القربىٰ والصحبة والإحسان إلى مَن يستحق الإحسان من الأبعدين.

واليوم، بعد شهرين من رمضان المبارك، نبدأ في تدريب عمليّ آخر على الصبر وضبط النفس والإحساس بالأخطاء والذنوب، والأمل في التوبة والصلاح.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

واليوم، أيضاً نستشعر قرابة المسلم للمسلم مهما شطت الديار، ومهما اختلفت الألسنة والألوان، ونحس بأن المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً وندرك أن المسلمين عامة أمة واحدة، لابد من العمل على تجميعها وتشجيعها ومقاومة تعديدها وتنويعها.

إنها فترة الحج: موسم الجهاد الأصغر الذي هو تمرين وترويض للنفوس المؤمنة على الجهاد الأكبر، جهاد الأهواء والأخطاء.

يقول الأستاذ أحمد محمد جمال رحمه الله: إن الحج والصلاة والصيام والزكاة جميعها عبادات يجب على المسلم أن يخضع لأدائها ولو لم يدرك مقاصدها ومصالحها، تصديقاً لقول الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومع ذلك يدرك العقلاء المفكرون المتأملون أن للعبادات في الإسلام كما للمعاملات مقاصد ومصالح ومكارم، وإذا كنا نذعن بأداء الحج كعبادة يجب في الوقت نفسه أن ننتفع بمقاصده ومصالحه ومكارمه التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨].

والمنافع، وإن فسّرها بعض العلماء أو معظمهم بالتجارة، بَيْدَ أنها في حقيقتها تتسع لمعانٍ وأبعاد ومجالات متعددة ومتنوعة، فكل أمر أو فعل أو عمل أو سلوك فيه منفعة لجماعة المسلمين دينية كانت أو مادية أو اجتماعية أو سياسية، فهو من منافع الج لا ريب فيه.

لذلك ينبغي للمسلمين أن ينتهزوا فرصة الحج للتعارف والتعاون على حل مشكلاتهم وفصل قضاياهم وللعمل على رفع شأن الإسلام وعزة المسلمين في كل مكان من العالم وتحقيق وحدتهم وقوّتهم.

فالإسلام إذن دين المقاصد والمصالح والمكارم وليس دين العبادات المجردة من منافع الفرد المسلم والجماعة المسلمة.

لنتساءل: لماذا نحج؟! ألنطوف بالبيت؟! أم لنبيت في مزدلفة؟! أم لنقف في عرفات؟! أم لنرجم بالحصى الجمرات الثلاثة؟! أم لنقدم الأضحيات والفدى؟! وغير

ذلك من أعمال الحج ومناسكه؟! حقاً هذه مظاهر الحج وشعائره، ولكنها ليست لبابه وجوهره، وحقاً تلك وسائله وصوره، ولكنها ليست غايته ومغزاه.

إننا منذ مئات السنين، نحج ونتخذ وسائله وصوره ونرجع ببعض بركاته: المريض يشفى، والفقير يستغني والعقيم تلد، والعانس تتزوج والفاسد يصلح، والمذنب يتوب، وهي بركات للحج المبرور لا ريب فيها، لأنها ثمرات للدعاء المخلص في مواقف مباركات ورحاب مقدسات.

إن القرآن الكريم يتحدث عن دعوة المسلمين إلى الحج ويعللها بقوله عز وجل: ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ... ﴾ [الحج: ٢٨]. والمنافع هنا فردية وجماعية، مادية وروحية، دنيوية وأخروية، مباشرة وغير مباشرة، منظورة وغير منظورة، ملموسة وغير ملموسة، عاجلة وآجله، قريبة وبعيدة، في وقت واحد.

إذن: فمتى نحج من أجل جوهر الحج ولبابه؟! من أجل إصلاح مجتمعاتنا؟! من أجل تطهير أراضينا؟! من أجل تحريرها من الاستعمار والصهيونية؟! إلى جانب ما نحققه من بركات فردية خاصة: شفاء من مرض، غنى بعد فقر، صلاح بعد فساد.

لقد حرص القرآن الكريم على تهذيب الفرد الحاج وهو يؤدي نسكه، لأن الفرد المهذب أصل الجماعة المهذبة، فهي تتألف منه ومن أمثاله، ولن تكون جماعة صالحة ما لم يكن فرد صالح، وصلاح الجماعة طريق إلى تعاونها وتضامنها في الخير المشترك والسلام العام.

فالحج، كما يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: عمل ينغّص على المستعمرين استقرارهم ويوهن كيدهم، فإن المسلم في داكار على شواطئ الأطلسي عندما يلتقي بأخيه في سنغافورة والملايو على شاطئ الهادي يخترق نطاق العزلة التي يريد الاستعمار حبسه وراء أسوارها كي يتمكنوا من الإجهاز عليه.

ختاماً: أقول: إن الحج فرصة كبرى للصلاح الفردي والإصلاح الجماعي، وعلى قادة المسلمين من حكام وعلماء وعامة أن يعملوا صادقين للانتفاع من هذه الفرصة المتكررة كل عام مرة لتحقيق عزة العالم الإسلامي...